جرترود بل

أداة الاستعمار البريطانى فى العراق

دكتور محمود حسن صالح منسى

تكاد الأضواء تسلط على (ت . ا . لورنس) T.E. Lawrence وحده دون غيره ممن قاموا بتنفيذ مخططات بريطانيا فى الشرق العربى خلال الحرب العالمية الأولى والسنوات التالية لها ، إذ حظى دون غيره بكل الاهتمام سواء من جانب مادحيه أو قادحيه ، فقد كتب الكثير عن نفسه وعن نشاطه ، كما ظهرت مؤلفات عديدة عنه ارتفع فى بعضها إلى مرتبة الاسطورة الخارقة .

ومع ذلك فقد حفظت لنا سجلات التاريخ أسماء شخصيات أخرى لا يقل دورها أهمية وخطورة عن دور (لورنس) ، ومن هذه الشخصيات (جرترود بل) التى ظهرت على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية المرتبطة بالعراق مثلما ظهر (لورنس) على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية المرتبطة بالحجاز والشام .

ولما كان لم يصدر عنها مؤلفات كما حدث (للورنس) فإن مصدرنا الوحيد عن نشاطها تلك الرسائل التى كتبتها لعائلتها وأصدقائها ، وقد نشرت زوجة

والدها ـ ليدى بل ـ مجموعةمن هذه الرسائل فى عام ١٩٢٧ ، وبعد عشر سنوات نشرت شقيقتها مجموعة أخرى، إلا أنه يؤخذ على هاتين المجموعتين أنهما حذفتا منها ما وجــدت الناشرتان حرجا فى نشره . ثم جاءت (اليزابث بيرجين Elizabeth Burgoyne) وهى مدرسة إنجليزية للموسيقى فنشرت مجموعة ثالثه من الرسائل فى جزءين صدر أولهما عام ١٩٥٨ ويضم الرسائل التى كتبتها جرترود بل بين عامى ١٨٨٩ و ١٩١٤ وصـدر ثانيهما فى عام ١٩٦١ يـكمل قصة حياتها لأنه يتضمن رسائلها منذ عام ١٩١٤ حتى وفاتها عام ١٩٢٦ ، وهذا الجزء الأخير هـو عمدتنا فى كتابة هذه الدراسة عن جرترود بل بالإضافة إلى بعض المصادر الأصلية التى تناولت تاريخ العراق وبخاصــة الوثائق البريطانية .

حياتهــا الأولى :

ولن يتسع الحديث هنا عن حيـــاة (جرترود) الأولى سوى أنها ولدت عام ١٨٦٨ فى عائلة ارستقراطية ، ودرست التاريـخ فى جامعة اكسفورد ، ولذلك كانت (جرترود) — شأنها شأن (لورنس) — تهتم بالتاريخ والآثار ، وأين تجد كنوزها إلا فى الشرق ، فولت وجهها شطره باحثة فى آثاره ، فزارت طهران وجاست خلال إيران وتعلمت اللغة الفارسية حتى ترجمت ثلاثين قصيدة من ديوان حافظ الشيرازى . وفى طهران التقت بحبها الأول (هنرى كادون) الذى كان يعمل سكرتيرا أول بالسفارة البريطانية لـكنه مات بعد قليل ، أما حبها الـكبير فـكان لضابط بريطانى (دوتى — ويلى) الذى فقد حياته هو الآخر فى إحـدى معارك شبه جزيرة غاليبولى فى إبريل عام ١٩١٥ ، وهـكذا قدر (لجرترود) أن تقضى بقية حياتها عانسا .

وفى ديسبر عام ١٨٩٩ – وفى أثناء رحلة لها حول العالم – استقرت بعض الوقت فى القدس وبدأت تدرس اللغة العربية . وفى مارس من العام التالى قامت برحلة عبر صحراء الأردن تتعرف على قبائلها ، وكانت تعيش مع البدو وتسمر معهم وتأكل بيدها من إناء واحد معهم وتزيت بزى عربى وعقدت صداقات مع شيوخ جبل الدروز ، ثم اتجهت إلى دمشق وعبرت بادية الشام إلى تدمر ثم إلى لبنان فى طريقها إلى وطنها .

وعادت جرترود إلى الشرق عام ١٩٠٢ حيث تابعت دراسة اللغة العربية ، كما زارت الشام عام ١٩٠٥ وبعد عودتها إلى بلادها كتبت مؤلفها : سورية – الصحراء والأرض الزراعية Syria–The Desert aed the Sown الذى صدر فى عام ١٩٠٨ ولم تلبث أن عادت إلى الشرق عام ١٩٠٩ فزارت حلب ودمشق وكربلاء وآثار بابل، وبغداد والموصل وقرقميش حيث التقت (بلورنس) مع المستشرق دكتور (هوجارث) .

وفى عام ١٩١٣ قامت برحلة من دمشق عبر صحراء النفود إلى حائل وعادت عن طريق بغداد وتدمر، وقد رسمت للأماكن التى مرت بها خرائط تفصيلية بينت عليها الكثير من المعلومات عن القبائل وأماكن الماء ، وقد منحتها الجمعية الجغرافية الملكية ميدالية ذهبية .

من هذا تتضح لنا المؤهلات التى رشحت (جرترود) لكى تدخل فى خدمة السياسة والمخابرات البريطانية ، لتؤدى دوراً سياسياً هاماً على مسرح الأحداث فى الشرق العربى ، حيث قامت بجولات على مدى خمسة عشر عاماً تعلمت فيها اللغة العربية حتى لقد سحرت العرب بمقدرتها على التحدث بها ، وتعرفت على القبائل العربية الضاربة فى البادية وجالست شيوخها ووثقت صلاتها بهم وعرفت كل شىء من مضاربهم .

جرترود والحرب العالمية الأولى :

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى في أغسطس (آب) ١٩١٤ كانت جرترود في انجلترا ، وقد كتبت في سبتمبر (أيلول) من العام نفسه تقريراً إلى الكابتن ديدس Deedes في إدارة العمليات العسكرية الذي رفعه بدوره إلى سيرادوارجراي Ed. Grey وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، وقد شرحت جرترود في تقريرها الحالة السياسية في شبه الجزيرة العربية والشام مما كان له أكبر الأثر على المسئولين الذين كانوا يخططون السياسة البريطانية ، لا بوصفه عرضاً للشخصيات والجماعات والاتجاهات السياسية في الأقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية وحسب ولكن لأن التقرير تضمن أيضاً رد الفعل المتوقع في هذه المنطقة في حالة دخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا ، وقد أوضحت جرترود في هذا التقرير حاجة سالم بن مبارك الصباح شيخ الكويت ، وخزعل خان شيخ المحمرة وابن سعود أمير نجد إلى حماية بريطانيا ضد الترك .

وإلى جانب ذلك فقد اعربت جرترود عن اعتقادها بأن السوريين وخاصة في الجزء الجنوبي من الشام (فلسطين) - واهميته لمصر معروفة - يميلون إلى بريطانيا ، وأن هذا الشعور قد تضاعف بسبب الكراهية التي يكنها السوريون النفوذ الفرنسي .

أما في بغداد ، فقد كانت جرترود ترى — كما جاء في تقريرها — أن كفة المصالح البريطانية ترجع كفة المصالح الألمانية ، وذلك لأهمية العراق بالنسبة للهند.

وتضيف جرترود أن والسيد طالب النقيب مصدر للمتاعب ، وهو لم يتلق عونا منا ، ولكن تجارنا كانوا على علاقات طيبة معه ، والكويت يعتمد في حياته علينا ، أما ابن سعود فانه يتوق للحصول على اعتراف منا ومن الممكن كسبه كحليف

لنا ، واعتقد أنه يمكننا أن نحيل الخليج إلى منطقة ساخنة بالنسبة للترك . وليس هناك أحد من الزعماء يحب الحكم التركى ، ويتمتع كل من الزعيمين العربيين عبد القادر باشا فى بغداد والسيد طالب فى البصرة بنفوذ كبير فى إقليمه يفوق نفوذ الباشا التركى كما أن شيخ المحمرة عامل له أهميته وهو حليف لنا ، وإذا حدث أن دخلت تركيا الحرب ، فإنه من الممكن أن ينتهز الوحدويون العرب هذه الفرصة للتخلص من الحكم التركى ، وليس من المرجح أن يبدأوا هم هذه الخطوة ولكن ليس من الصعب توجيههم هذه الوجهة .

أما المشكلة بالنسبة لسوريا فهى أن الفرنسيين قد احتجزوها لأنفسهم على الرغم من أن الشعب — كما تقول جرترود — يريد بريطانيا لا فرنسا » .

وقد أشار ديدس عند قدم هذه الرسالة لرؤسائه إلى أن ماورد بها « أكدته تماما التقارير التى يبعثها المفتشون البريطانيون فى الأقاليم العربية » . (1)

ولاشك أن تقرير جرترود صادف هوى فى نفس المسئولين البريطانيين وخاصة فى حكومة الهند ، الذين كانوا يبدون الاهتمام بالعراق والخليج قبل نشوب الحرب العالمية بفترة غير قصيرة . ولم يكن اهتمام البريطانيين بالعراق وليد ظروف الحرب العالمية الأولى وحسب وإنما كانت بريطانيا أكثر الدول الأوربية اهتماما بهذا القطر أثناء القرن التاسع عشر خصوصا بعد أن صارت بريطانيا تواجه خطر سياسة ألمانيا فى الاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten تلك السياسة التى أثارت قلق الحكومة البريطانيه وخوفها من وصول النفوذ الألمانى إلى المحيط الهندى عبر العراق والخليج ، ولذلك أسرعت بريطانيا باغلاق الطريق فى وجه النفوذ الألمانى بابرام اتفاقيتها المعروفة مع شيخ الكويت فى عام ١٨٩٩ ، فقد كانت بريطانيا تعتبر النفوذ الألمانى اشد خطرا من النفوذ الروسى ، واشتد سخط بريطانيا لأن منافسا كبيرا

يتوغل فى مجال بريطانيا التجارى،ويقيم نفسه مواجهة مستمرة «يحسدنا الجميع على امتلاكها (٢).

وإذا كان للمشروع الألمانى لمد خط سكة حديد بغداد سبباً من أسباب الحرب العالمية الأولى فإن ذلك يرجع إلى اهميتهالسياسة أكثر مما يرجع الى الأهميةالاقتصادية والى جانب ذلك فقد كان للعراق أهمية أخرى ألا وهى مجاورته لحقول النفط فى أيران وخاصة عبدان حيث كانت توجد أعظم مصافى النفط البريطانية ، حتى أنه قبل اعلان الحرب رسمياً على الدولة العثمانية تواترت الاخبار عن احتمال قيام الترك بالهجوم على عبدان ، وكان من الممكن وصول القوات التركية اليهـا من البصرة

والى جانب ذلك فقد كان من رأى لورد كرو Crowe وزير الهند أن أهم ما كانت تستهدفه الحملة البريطانية على العراق هو التأثير المعنوى على الشيوخ العرب(٣) فقد كانت بريطانيا ترغب فى تقوية مركز الزعماء العرب الموالين لها فى منطقةالخليج مثل شيخ المحمرة وشيخ الكويت وابن سعود وشد أزرهم بتقديم دليل مادىعلى قوة بريطانيايهدىء من روع هؤلاء الحكام الصغار فى مواجهة الدعوة للجهاد والتى كان ينتظر أن يعلنها الخليفة العثمانى ضد دول الوفاق . وقد تأكد هذا فيما جاء فى خطاب اسكويث Asquith رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ أمام مجلس العمـــوم البريطانى فىالثانى من نوفمبر(تشرين ثان)١٩١٤من أن الهدف من ارســال قوة الى العراق «هو ضمان حياد العرب وحماية مصالحنا فى الخليـج وحماية حقول النفط وعلى العموم المحافظة على هيبة بريطانيا فى الشرق»(٤).

وفى ١٦ أكتوبر (تشرين أول) غادرت قوة الهند بومباى بقيادة البريجادير جنرال دالماين Dalmain وكانت التعليمات الصادرة اليـه تنص على حمايةأنابيب

النفط الى الأهواز ومصافيه فى عبدان وتأكيد معونة بريطانيا للزعماء العرب المحليين ضد الدولة العثمانية وفى ٢٣ أكتوبر تم احتلال جزيرة البحرين واتخـــذت قاعدة عسكرية للحملة، وفى اليوم التالى لدخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا نزلت القوة الى البر عند الفاو حيث يصب شط العرب فى الخليج (٥) .

وتوالت الامدادت من الهند، وبعد سلسلة من الاشتباكات مع القوات التركيـة استطاعت القوات البريطانية القادمة من الهند بقيادة الجنرال باريت Barrett احتلال البصرة فى ٢٢/٢٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ حيث أذاع صير برسى كوكس Percy Cox كبير الضباط السياسيين المرافقين للحملة بياناً باللغة العربية أعلن فيه أن الحكومة البريطانية على الرغم من حالة الحرب القائمة بينها وبين الدولة العثمانية ـــ لا تحمـل ضغينة للاهلين ، وأنهم سوف يتمتعون بالحرية والعدالة فى ظل العلم البريطانى والإدارة البريطانية طالما وقفوا موقف الحياد بين القوات البريطانية والتركية وامتنعوا عن حمل السلاح ضد بريطانيا. (٦)

وقد بدأت جرترود أعمالها فى الحرب فى الجبهة الغربية وذلك بتسجيل الجرحى والمفقودين ، وحتى فى أثناء عملها هذا لم تـكف عن التفكير فى الشرق العربى عامـة والعراق خاصة ، ففى ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ كتبت تعبر عن امنيتها فى أن تتواجد فى العراق ، وشوقها لسماع نبأ احتلال القوات البريطانية لبغداد واخـــذت تـكتب إلى معارفها تطلب موافاتها باخبار حملة العراق .

ومع بداية نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ فتح أمام جرترود باب الشرق ، فانه نظرا لمعرفتها بقبائل شمال شبه الجـــزيرة العربية صار من الممكن الاستفاده من جرترود ومعلوماتها ، وتأكد دكتور دافيـــد هوجارث أن معلوماتها ستـكون

مفيدة للغاية ، وعندما ابرقت القاهرة إلى لندن تستدعى جرترود ، لم تضيع جرترود وقتا بل اسرعت إلى القـــاهرة ، ثم كتبت إلى زوجه ابيها لـكى توافيها بـكتبها وخرائطها التى كانت تعتقد أنها ستكون فى حاجة إليها فى عملها الجديد .

وفى القـاهرة التقت جرترود بـكل من هوجارث ولورنس ، وكان عملهـا فى البداية يقتصر على تزويد سجلات المخابرات البريطانية بالمعلومات عن القبائل العربية وشيوخها واعدادها ، وهو عمل كانت مؤهلة له ولا ينافسها فيه أحد .

رأى جرترود فى أمانى الشريف حسين وأطماع فرنسا :

ومنذ نشوب الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية ، صار المسئولون البريطانيون يفـكرون فى اسهل الوسائل لانزال الهزيمة بالدولة العثمانيـة ، وأدركت بريطانيـا أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه عرب المشرق العربى الاسيوى فى الصراع الدائر ، خاصة وقد سبق أن أبدى هؤلاء بعض مظاهر السخط على الحـكم التركى ، فـكان من الطبيعى أن تحاول بريطانيا النيل من الامبراطورية العثمانية مستخدمة رعاياها العرب ، وقد قدر البريطانيون الاهمية العسكرية لقيام ثورة ضد الاتراك فى أقطار المشرق العربى ، فابرمت بريطانيا الاتفاق مع الادريسى فى عسير فى أبريل (نيسان) سنة ١٩١٥ ، ومع ابن سعود فى نجد فى ديسمبر (كانون أول) من العام نفسه ، إلا ان أهم اتفاقات بريطانيا مع زعماء العرب كان اتفاقها مع الشريف حسين بن على أمير مكة الذى وقع عليه اختيارها لقيادة ثورة العرب ضد الدولة العثمانية لاسباب عسكرية وسياسية وخصوصا مواجهة الدعوة إلى الجهاد بخلـق زعامة دينـية تنافس الخليفة العثمانى وتضعف مركزه بين المسلمين .

وعلى الرغم من أن غاية ماكان يصبو إليه الشريف حسين هو ضمان استقلاله

الشام فى الحجاز فانه لم يلبث أن اتسعت آماله لتكوين دولة عربية تضم بلاد الشرق العربى الآسيوى[٧] خصوصا وأن القوميين العرب المتمركزين فى الشام فى ذلك الوقت كانوا هم أيضاً يبحثون عن زعامة دينية تقود ثورتهم ضد الترك حتى لاتوصم حركتهم بالمروق ، والخروج على طاعة خليفة المسلمين ، وذلك بعد أن ضجوا من عسف أحمد جمال باشا فى الشام ونصب المشانق التى راح ضحيتها الرعيل الأول من الشهداء العرب الذين اعدموا فى ساحة البرج ببيروت فى الحادى والعشرين من أغسطس (آب) ١٩١٥ ، إلا أن الزعماء الوطنيين العرب — وقد اجمعوا على الثورة ضد الترك بالاعتماد على مساعدة بريطانيا ووافقوا على تولى الشريف حسين زعامة هذه الثورة — قد وضعوا مخططا يتضمن المطالب التى أرادوا أن تكون أساس مفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم بروتوكول دمشق ، وأهم ماجاء فيه تلك الحدود التى طالبوا بأن تعترف بريطانيا باستقلال الأقطار العربية الواقعة بداخلها والتى كانت تشمل الشام بحدودها الطبيعية والعراق بكل أقاليمه ، وشبه الجزيرة العربية .

وبدأت المباحثات بين الشريف حسين والمسئولين البريطانيين فى القاهرة وهى المعروفة بمراسلات الحسين مكماهون منذ الرابع عشر يوليو (تموز) ١٩١٥ ، إلا أن الحكومة البريطانية حاولت ألا ترتبط — فى الاعتراف باستقلال العرب — بالحدود التى نص عليها بروتوكول دمشق ، وطالب بها الشريف فى رسالته الأولى إلى مكماهون ولكن الشريف ألح فى رسالته بتاريخ ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩١٥ على ضرورة تسليم بريطانيا بالحدود التى يطالب بها العرب .

وفى مواجهة مطالب الشريف ، وادعاءات فرنسا حليفة بريطانيا أبدت جرترود رأيها فى أطماع كل من الشريف وفرنسا فى التقرير الذى بعثت به فى ٢٠ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٥ إلى لورد روبرت سسل فقد ذكرت :

(أنه قد أديرت المفاوضات مع الشريف بمهارة ، وطالما أنه فى استطاعتنا اجتذابه والإبقاء على صلته بنا فلاخوف من قيام حركة دينية كبرى ، فانه هو الشخص الوحيد الذى يستطيع إثارة حرب دينية مقدسة ، أما الترك الذين يدعون إلى هذه الحرب بإيعاز من الألمان فإنهم لايقدرون على الإقناع بها هذا العام قدرتهم عليه فى العام الماضى .

والمشكلة هى هل نستطيع المحافظة على ارتباط الشريف بنا ؟ من المعلومات التى لدينا يبدو أنه قد صار يحتل مركزا مرموقا فى شبه الجزيرة ، ولكن قوته روحية وليست عسكرية ، وإذا تقدم الترك من الشام جنوبا بقوة كبيرة فإنهم يستطيعون الضغط عليه وهو لايقوى على مقاومة هذا الضغط ولاشك فى أنه من المحتمل أن يتهاوى أمام حليفة الدولة العثمانية . وفى الوقت نفسه فإننا نلقى ضغطا وصعوبات من جانب الفرنسيين وحكومة الهند ، والشريف على حق ـ كما اعتقد ـ فى رفض بحث المسألة العربية منفصلة عن بقية الاقطار ، لأن الصحراء لاتكفى نفسها ، ولذلك فإن من يسيطر على الاسواق فى الاقاليم الزراعية يجب أن يسيطر على البدو وسكان الواحات ، وقد ظهر الشريف معقولا ، ومن الممكن أن نصل إلى اتفاق ، ولكن ليس على أساس التنازل عن كل سوريا ، وأن المطالب التى قدمها بيكو مؤخراً تجعل سوريا الفرنسية تمتد من البحر المتوسط إلى دجلة ، ومن الحكمة أن نمد للفرنسيين حبل الأمل ، وعندما تحين لهم فرصة بحث إدارة سوريا بهذا الامتداد فمن المحتمل أن يتبينوا أنها عمل اكبر من استعدادهم للقيام بأعبائه ، ولكن غزل الحبال الطويلة يحتاج إلى وقت طويل ولايتوفر هذا الوقت حالياً .

إن حركة عربية قوية إذا أقيمت على قدميها فقد تطرد الفرنسيين من شمال

أفريقيا بمثل السهولة التي تطردنا بها من مصر . واعتقد أنه يجب على الفرنسيين أن يقنعوا بالاسكندرونه وكيليكية بالاضافة إلى لبنان وبيروت .

ويتمثل ضعف هـــذه الفكرة في أن العرب لايستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم ولايوجد أحد مقتنع بهذا اكثر منى ، وعندما يلجأ إلينا العرب طلبا للعون ــ وهذا ما سيفعلونه ــ فإن الفرنسيين لن ينظروا إلى ذلك بارتياح(٨) .

رحلة جرترود إلى الهنـــد :

لقد كان المسئولون البريطانيون عن الشرق العربى فريقين : فريق الساســـة والعسكريين المتمركزين فى القاهرة ويتبعون دار المندوب السامى البريطانى وأطلق عليهم اسم المدرسة المصرية أو مدرسة القاهرة ، وفيما بعد أطلق عليهم اسم المكتب العربى Arab Bureau وكان هذا الفريق يضم عدداً من الخبراء بالشئون العربية مثل ت.أ.لورنس، رونالد ستورز Ronald Storrs وجلبرت كلايتون Gilbert Clayton وجورج هوجارث G. Hogarth وجرترود بل أما الفريق الآخر فكان مركزه الهند ولذلك كان يسمى بالمدرسة الهندية ، وتزعم هـــذا الفريق سير برسى كوكس Percy Cox وارنولد ولسن Arnold wilson والكابتن شيكسبير Shakespear وعلى الرغم من اتفاق المدرستين على أهمية الأقطار العربية ومواردها بالنسبة لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى إلا أنه كان ثمة خلاف كبير بينهما ، فبينما كانت مدرسة الهند تهتم فى المقام الأول بالعراق وإيران وثروتهما النفطية وكذلك منطقة الخليج العربى، فإن مدرسة القاهرة كانت تهتم بقناة السويس وكل مامن شأنه حمايتها ، وعلى الأخص بلاد الشام، تنفيذاً للسياسة التى رسمها كتشنر منذ كان معتمداً بريطانياً فى مصر(٩) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت مدرسة الهنــــد تعتقد أنه فى استطاعة الحلفاء عامة

وبريطانيا خاصة إحراز النصر فى الحرب العالمية دون الاستعانة بالعرب ودون الالتجاء إلى إثارتهم ضد الترك ، الأمر الذى دعت إليه مدرسة القاهرة ، فقد كانت مدرسة الهند تخشى أن يؤدى تحريض بريطانيا للعرب على الثورة ضد الخلافة الإسلامية إلى إثارة مسلمى الهند ، كما كانت تخشى أن تصبح القومية العربية مصدر تهديد لبريطانيا ذاتها فتنقلب على المصالح البريطانية فى البلاد العربية ، بحيث يصبح من الصعب إخضاع العرب لنفوذ بريطانيا بعد الحرب . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تأمل أن تنجح بريطانيا ، إذا شجعت العرب على الثورة ضد الترك وساعدتهم فى هذا السبيل — فى الاحتفاظ بصداقة العرب بعد الحرب بحيث لا يكون ثمة مجال للخوف على مصالح بريطانيا فى المنطقة . ولذلك كان من رأى أعضاء مدرسة الهند ألا تلوح بريطانيا للعرب بأية وعود استقلالية وألا تشجعهم فى أمانيهم القومية كما كان من رأيها إقامة حكم بريطانى مباشر فى البلاد العربية فى غرب آسيا . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تحبذ اصدار الوعود للعرب وإظهار العطف على أمانيهم القومية ، وكانت ترى منح العرب استقلالا محدوداً تحت سيطرة بريطانية مقنعة ، وأن يعهد بتسلم مقدرات هذا الاستقلال المحدود إلى حكام من العرب الموالين لبريطانيا ضماناً لاستمرار النفوذ البريطانى ، ومن هنا كانت مدرسة الهند تعارض إشعال ثورة عربية ، تلك الثورة التى رشحت مدرسة القاهرة الشريف حسين لزعامتها ، بل كانت تقاوم الاعتماد على الهاشميين وتؤيد التحالف مع ابن سعود لضعف مركزه خارج شبه الجزيرة العربية .

ولذلك كانت المفاوضات البريطانية مع ابن سعود تجرى من أجل تحقيق هدف قريب وهو ضمان صداقة أمير نجد ، أو على الأقل وقوفه على الحياد أثناء العمليات الحربية فى العراق ، ولم تكن هذه المفاوضات تهدف إلى أبعد من ذلك طالما أن

مدرسة الهند — التي تولت هذه المفاوضات — لم تهتم كثيرا باقامة دولة عربية تحل محل الامبراطورية العثمانية .

وقد لفت الخلاف بين الهند ومصر حول السياسة البريطانية إزاء العرب نظر جرترود وهى فى القاهرة ، ولم تكن مرتاحة لاستمرار هذا الخلاف ، لأن من شأنه كما قالت فى رسالة إلى والدها فى ٢٤ يناير (كانون ثان) ١٩١٦ أن يؤدى إلى انعدام التعاون بين إدارتى المخابرات فى البلدين « وكلما استمر هذا الوضع ازدادت الحالة سوءا وخطرا ، وهم (فى الهند) لايعلمون بأحوال المناطق الغربية من شبه الجزيرة ونحن (فى مصر) لانعلم عن المناطق الشرقية منها ، ولذلك فانى سأذهب إلى الهند ، ولا أدرى إذا كانت هذه الرحلة سوف تأتى بفائدة ولكنها جديرة بالمحاولة على كل حال ، ولسوف أتعلم الكثير لأنهم (فى الهند) سوف يسمحون لى بالبحث والتنقيب فى سجلاتهم عن العرب حتى أرى ما يمكن إضافته منها إلى معلوماتنا ونحن فى حاجة إلى أن ننشىء فى الشرق الأدنى مكتبا دائما للمخابرات هنا (فى القاهرة) على أن يستمر فى العمل بعد انتهاء الحرب ، وهذا المكتب لايستطيع العمل بدون معونة السلطات البريطانية فى الهند ، وهذا هو الموضوع الرئيسى الذى سأتناوله بالبحث مع نائب الملك فى الهند(١٠) وفى الثامن والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٦ أبحرت جرترود على ناقلة الجنود يوربيديز Euripides فوصلت كراتشى فى السابع من فبراير (شباط) ومنها إلى دلهى حيث التقت بلورد هاردنج Hardinge نائب الملك فى الهند وبعد انتهاء مباحثاتها معه غادرت الهند فى السابع والعشرين من الشهر نفسه .

جرترود فى العراق :

وفى طريق عودتها من الهند زارت جرترود العراق ، فنزلت فى البصرة ضيفة

على آل كوكس ، وكان سير برسى كوكس كبير الضباط السياسيين فى الخليج ، وعلى الرغم من أنه سبق لجرترود مقابلته إلا أن هـذه الزيارة كانت فاتحة أقوى وامتن صداقاتها فى الفترة الأخيرة من حياتها . وفى البصرة عهد إليها بالاشتراك فى تحرير فهرس عن أماكن شبه الجزيرة العربية ، كان يجرى إعداده لحكومة الهند وقد التقت فى هذه الأثناء بمستر دوبز Dobbs الذى كان وقتئذ ضابطا سياسيا بالعراق وبذلك التقت جرترود بثانى المندوبين الساميين اللذين عملت معهما فى العراق .

وفى أثناء وجـــودها بالعراق أوفد لورنس من القاهرة إلى العراق فى إبريل (نيسان) ١٩١٦ ، وكانت المهمة التى عهد بها إليه هى السعى لفك الحصار التركى للقوات البريطانية فى الكوت ولو برشوة القائد التركى خليل باشا(١١) .

وفى أثناء وجودها بالعراق أيضا بذلت جرترود بعض الجهود لاستمالة ابن الرشيد وكان لا يزال يؤيد الترك ، ولذلك التقت فى أوائل مايو (أيار) ببعض رجال ابن الرشيد الذى كانوا يعرفونها منذ رحلتها فى حائل قبل الحرب واستقت منهم بعض الأخبار ثم بعثت معهم ببعض الرسائل إلى أمير حائل وإلى بعض الشخصيات الأخرى التى تعرفها ، وكانت جرترود تعلق الآمال على كسب أمير حائل إلى جانب بريطانيا أو على الأقل الوقوف على الحياد ، وكان سير برسى كوكس يؤيد مساعى جرترود ولقد فشلت محاولة جرترود ولم يتزحزح ابن الرشيد عن موقفه ، ولذلك فقد اتهمته فى رسالتها إلى ذويها فى ١٥ يوليو (تموز) بالحمق الذى لا يتصوره عقل ، وعبرت عن أملها فى أن يثور عليه أهل شمر ويقيموا أميرا آخر مكانه (١٢) .

ولقد صارت مهمة جرترود فى العراق هى العمل كحلقة اتصـــال بين القاهرة والبصرة ، وانتهزت هذه الفرصة لجمع مزيد من المعلومات عن العراق وقبائله مستعينة بكثير من الشخصيات البريطانية من العاملين فى العراق مثل الكابتن ايدى Eadie

الذى كان يعرف عن القبائل فى العراق أكثر من أى شخص آخر فى العراق.

و« مستر ادموندز Edmonds (١٣) الذى كان وقتئذ ضابطاً سياسياً فى سوق الشيوخ ومنه استقت كثيراً من المعلومات عن البادية والحضر فى العراق. فكانت تركب للخيل مع مرافقيها من الضباط البريطانيين تجوب القرى وتذهب لزيارة أعيانها وتتناول معهم الطعام، وفى المساء تستدعى اليها الأهالى للحصول منهم على المعلومات التى كانت تجرى وراءها، وتحاول التقرب منهم بشتى الوسائل بأداء بعض الخدمات لهم،وفى هذه الاجتماعات تدار القهوة والسجائر على الحاضرين كل هذا دون أن يتطرق اليها التعب وهى تعمل فى الجو القائظ، فقد عبرت — فى خطابها فى ١٦ يونيو عن سعادتها فى العراق، وقد صورت فى هذا الخطاب سوء حالة الحملة البريطانية على العراق، تلك الحملة التى أعادت إلى ذاكرتها الحملة على القرم فى منتصف القرن التاسع عشر (١٣أ).

وفى هذه الجولات زار جرترود الكثير من الجهات مثل النصيرية وسوق الشيوخ والقرنه، وعلى أثر عودتها ون هذه الجولات إلى البصرة عينت جرترود مندوبة رسمية للقاهرة، وبذلك صارت جزء من الحملة الهندية على العراق.

ولم تهدأ جرترود بل تابعت دراستها القبانى، فامضت عيد رأس السنة (ديسمبر سنة ١٩١٦) فى قلعة صالح مع مستر سان جون فيلبى، واستمرت خلال الشهور الأولى من العام الجديد (١٩١٧) تستقبل الزعماء العرب.

وقد تمكن البريطانيون من استعادة الكويت فى ٢٤ فبراير (شباط) ١٩١٧ وعلى أثر ذلك عهدت الحكومة البريطانية إلى الجنرال مود Maude قائد الحملة على العراق بالتقدم إلى بغداد التى سقطت فى يده فى الحادى عشر من مارس (آذار)، وذاع الجنرال مود فى التاسع عشر من الشهر نفسه بيانا باللغتين العربية والانجليزية

أعلن فيه أن القوات البريطانية لم تأت إلى العراق غازية بل محررة ، وإن بريطانيا والدول المتحالفة معها ترغب وتأمل فى أن ينهض الجنس العربى ليحتل مكانه بين شعوب الارض . ودعا العراقيين إلى المساهمة فى إدارة شئونهم المدنية بالتعاون مع ممثلى بريطانيا السياسيين الذين يرافقون القوات البريطانية (١٤).

وبعد أن سقطت بغداد فى ايدى القوات البريطانية انتقلت إليها جرترود — فوصلتها فى ١٥ أبريل (نيسان) ١٩١٧ ، حيث بدأت فى تكوين صداقات جديدة مع كثير من الشخصيات العربية الجديدة إلى جانب أصدقائها القدامى ، وظل المكتب العربى بالقاهرة يراسل جرترود ويزودها بالمعلومات عن أحوال الحجاز والشام التى تمس المصالح البريطانية عن قرب ، وكانت هى الأخرى تكتب إليهم عن أحوال العراق ، فقد كانت جرترود تعتبر أنها جميعا فصول فى رواية واحدة .

واضيف إلى جرترود عمل آخر هو تحرير صحيفة محلية اسمها (العرب) كان يساعدها فى إصدارها كاتب لبنانى هو سليم البستانى ، كما قامت بجولات فى كثير من مدن العراق وبخاصة فى مراكز الشيعة فى كربلاء والنجف والحلة والكوفه حيث التقت بمجتهدى الشيعة فى أواخر عام ١٩١٧ وأوائل عام ١٩١٨ ، حتى لقد أصبح الناس يعجبون لهذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل : أمرأة أجنبية تجاس إلى مجتهدى الشيعة تحتسى معهم القهوة وتنصت إلى أحاديثهم فى اهتمام بالغ ، ولقد أطلق عليها الناس لقب الخاتون أى السيدة الشريفة .

ولقد اهتمت جرترود على وجه الخصوص بتوثيق صلاتها بكبار ملاك الأراضى وزعماء العشائر الذين كانوا الفئة الوحيدة التى لا تعانى من قسوة ظروف الحرب ، وكان لكل منهم نفوذ وسلطة فى منطقته ، وقد اهتمت السلطات البريطانية بكسب تأييدهم باعتبارهم قوة لها أهميتها فى تحقيق الأمن وخدمة المصالح البريطانية والحيلولة

دون تقديم المساعدات الترك ، فعمدت السلطات البريطانية إلى الاتفاق مع هؤلاء الشيوخ والزعماء وجعلهم مسئولين أمامها عن شئون عشائرهم ومناطقهم فيما يختص بالأمن وحماية المواصلات والأموال البريطانية وجمع الضرائب، فأغدقت عليهم الأموال وأعفتهم من الضرائب ، ومكنتهم من الانتفاع بالأراضي الأميرية ومنحتهم الاقطاعات الكبيرة مما كان له أثره في تكوين النظام الاقطاعي في العراق .

جرترود والتصريح الإنجليزي الفرنسي المشترك :

وعندما أحست بريطانيا وفرنسا بالسخط يجتاح الشرق العربي بعد تحريره من الترك لعدم وفاء الدولتين للعرب بالوعود التي بذلت لهم أثناء الحرب ، أسرعت الدولتان بإصدار التصريح الإنجليزي الفرنسي (٧ نوفمبر ١٩١٨) الذي وعد بتشجيع إقامة حكومات وإدارات وطنية في كل من الشام والعراق ، ولقد أعلن ارنولدولسن كبير الحكام السياسيين بالنيابة معارضته للتصريح وللسياسة التي أملت التصريح ، ففي ١٦ نوفمبر (تشرين ثان ١٩١٨) بعث إلى وزير الهند معلنا أن التصريح « سوف يورطنا في مشاكل جسيمة كتلك التي أثارتها وعود مكماهون لشريف مكة » مؤكدا انفصال العراق عن بقية الأقطار العربية ، مطالبا بمعاملته معاملة مختلفة وفصل قضيته عن القضايا العربية في البلاد الأخرى(١٥) . إلا أن المسئولين البريطانيين في لندن أبلغوا ولسن أن الهدف من التصريح كان توضيح الموقف في سوريا على الرغم من إشارة التصريح إلى العراق .

ولقد كان ولسن وغيره من الاستعماريين البريطانيين يعتبرون احتلال العراق أوج النشاط البريطاني لأنه يؤمن الطريق إلى الهند ، كما يضمن حماية الهند من روسيا البلشفية التي تعاظم خطرها عن ذي قبل بعد أن باتت اطماعها تغذيها مبادىء

اجتماعية. ولذلك عارض ولسن الاقتراح الذى قدمه لورنس إلى حكومته بأن يوضع العراق الأدنى تحت حكم الأمير عبد الله والأعلى تحت حكم الأمير زيد وسورية تحت حكم الأمير فيصل على أن يظل الحسين ملكا على الحجاز ولا تكون له أية سلطة زمنية على الأقاليم الثلاثة خارج الحجاز . وعندما أبلغت الحكومة البريطانية ولسن باقتراح لورنس اعتبرها — فى ٢٠ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ — غير عملية وأن وضع أبناء الشريف فى هذه المراكز ليس فى مصلحة بريطانيا أو سكان البلاد، وأن تقسيم العراق لا تبرره الأحوال السياسية والاقتصادية لأن الولايات العراقية الثلاث يجب أن تكون وحدة واحدة تحت السيطرة البريطانية الفعالة ، «ولذلك فإنى استحث حكومة صاحب الجلالة من أجل استثناء هذه البلاد (العراق) تماما وإلى الابد من أى تسوية مع الأشراف » .

إلا أن مس بل كانت تعتقد أن ارنولد ولسن قد جانبه الصواب فى اعتقاده بأن أهل البلاد لن يقبلوا أن يتولى عليهم حاكم عربى من الأشراف أو من خارج العراق عموما ، وكانت ترى أن أهل العراق لن يقبلوا أميرا محليا لأنهم لا يثقون فى أحد منهم ، ولكنهم سوف يؤيدون أى رئيس عربى خصوصا إذا كان يستند إلى تأييد مندوب سام بريطانى قوى(١٦) .

ورغم غموض التصريح وبعده عن تحقيق أمانى العرب إلا أن جرترود لم تكن راضية عنه من حيث أثره على الأهالى فى العراق وقد بعثت برأيها إلى المسئولين البريطانيين فى مذكرة بتاريخ فبراير ١٩١٩ تحت عنوان « تقرير المصير فى العراق» وقد ذكرت (جرترود) أن نشر التصريح الإنجليزى الفرنسى — مهما كان مغزاه السياسى فى أى مكان آخر — فإنه كان ضرورة يؤسف لها فى العراق ، « فإنه على

الرغم من أنه لم يفعل أكثر من تأكيد النوايا التى سبق إعلانها عند احتلال بغداد (تصريح مود) إلا أنه كان يختلف عنها فى ناحية هامة ، إذ أنه بينما صدر تصريح الجنرال (مود) ونتيجة الحرب لاتزال موضع شك مما جعله ضرورة عسكرية ، فإن التصريح الإنجليزى الفرنسى صدر بعد انتصار الحلفاء ، وقبل إصداره كان أهل العراق قد شهدوا النهاية الناجحة للحرب وسلموا بأن بلادهم ستبقى تحت السيطرة البريطانية المباشرة وكانوا سيرضون بالخضوع لحكم القوة ، إلا أن التصريح فتح الباب أمام احتمالات أخرى وأتاح الفرصة للدسائس السياسية من جانب العناصر المتعصبة خصوصا وأن التصريح صدر بعد أن عاد إلى بغداد عدد من الأشخاص الخطرين على الهدوء فى العراق حيث أخذوا فى بث الدعاية ضد البريطانيين ، ومما زاد من تأثير التصريح تلك الأنباء التى أذاعتها (رويتر) عن ذهاب الشريف فيصل إلى مؤتمر الصلح كمندوب عن الدولة العربية المستقلة (١٧) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت جرترود تعتقد أن تصريح ٧ نوفمبر لايتعارض مع وضع العراق تحت الحماية البريطانية ، كما لا يتعارض مع الحماية وضع زعيم عربى على رأس الدولة فى العراق — متخذة من قبل الحرب مثلا لذلك ، وأشارت إلى أن الرأى العام فى العراق لا يعترض على تعيين عربى على رأس الدولة ، وأنه يوافق على وضع أحد أبناء شريف مكة فى هذا المركز إلا فى حالة وجود مرشح عصرى أكفأ (١٨) .

وفى السابع من مارس ١٩١٩ وصلت جرترود إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح وقد انضم إليها — بناء على استدعاء الحكومة البريطانية — كل من (ارنولد ولسن) نائب كبير الحكام السياسيين فى العراق ، (هو جارث) من المكتب العربى بالقاهرة علاوة على (لورنس) فكونوا جبهة من المشتغلين بمسائل الشرق العربى ، للاتفاق

على رأى موحد تسترشد به الحكومة البريطانية . ثم عادت (جرترود) إلى بغداد في ٢٤ أكتوبر ١٩١٩ ، وتوافد الزوار على بيتها بالعشرات فكانت تعقـــد معهم جلسات يحضرها بعض رجال الإدارة بالعراق .

ولم تلبث (جرترود) أن صارت تقدر ارتباط المصالح البريطانية في العراق بالمصالح الفرنسية في الشام وأنه لا يمكن بحث التسوية العراقية منفصلة عن التسوية السورية ، ولذلك فإنها — في ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ — طالبت بأنه على الحكومة البريطانية أن تصل إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية على أسس الصلح مع تركيا وذلك بعد أن انسحبت الولايات المتحدة — عليها لعنة الله (كما تقول جرترود) ونفضت يدها من مشاكل العالم القديم .

جرترود والثورة في العراق :

ولم تلبث الثورة أن نشبت في العراق منذ أواخر عام ١٩١٩ ، وتجمعت عدة أسباب أدت إلى انفجار مرجل الغضب في كافة أنحاء البـــلاد ، وبخاصة سياسة (أرنولد ولسن) التي اتسمت بالقمع والشدة لمواجهة بلاد تطالب بالحرية ، وقـــد عمت الثورة أنحاء العراق ، الذي شهد وحدة بين طوائفه المختلفة ، ووحدة بين السنيين والشيعة ، وعقدت الاجتماعات السياسية في المساجد حيث قرئت الأشعار الوطنية تطالب المحتلين بالخروج من البلاد .

وإزاء هذه الثورة العارمة التي اجتاحت العراق ضد الاستعمار البريطاني وكلفت الحكومة البريطانية الكثير من الأموال والأرواح ، علاوة على ضياع هيبة بريطانيا في المنطقة وتزعزع مركزها ، ظهرت عدة آراء تقترح حل مشكلة العراق ، فهذا (لورنس) يقترح إقامة إدارة عربية تحت رئاسة أمير من الأسرة الهاشمية في الحجاز ، على أن يقوم إلى جانبه (سير برسى كوكس) كمعتمد بريطاني يحيط به عدد من

المستشارين لإبداء النصح وتقديم العون إلى هـذه الإدارة فقد صار (لورنس) يعتقـد أنه من الممكن السيطرة على العراق بواسطة الضباط العراقيين الساخطين على الحكم التركي ، وبذلك يمكن خبيئة المصالح البريطانية بأقل التكاليف عن طريق (العرب الأصدقاء) الذين تساندهم بريطانيا عندما يتولون حكم البـلاد المباشر بأنفسهم .

وقد كانت (جرترود) تؤيد رأى (لورنس) حتى لقد اقترحت – أثناء وجود فيصل فى بريطانيا بعد أن طرده الفرنسيون من سورية – أن أفضل اقتراح يمكن أن تتقدم به لحكومتها هو أن يقوم (سير برسى كوكس) بتتويج فيصل ملكا على العراق فى كنيسة (وستمنستر Westminister Abbey) ثم يعودان معاً إلى العراق (خطاب جرترود فى ١٦ أغسطس ١٩٢٠) .

ولا شك أن هذا الرأى الذى صارت تعتنقه (جرترود) هـو أساس الخلاف بينها وبين (أرنولد ولسن) الذى كان يتبع الشدة فى قمع الحركة الوطنية فى العراق ويطالب بإقامة حكم بريطانى مباشر صريح لا حكما غير مباشر يختفى وراء واجهة عربية كما كان ينادى (لورنس) و (جرترود) وقد كان (ولسن) يعتقد أهمية العراق الاستراتيجية ويرى أن البريطانيين – باحتلال العراق – قد تمكنوا من « دق أسفين فى العالم الإسلامى » وبذلك منعنا تجمع المسلمين ضدنا فى الشرق الاوسط ، ويجب أن تكون سياستنا الاحتفاظ ببلاد العراق وعدم إدماجها سياسياً فى بقية أجزاء العالم العربى أو العالم الإسلامى .

إلا أن الحكومة البريطانية – إزاء ما تحملته من خسائر من جراء الثورة – أخذت بوجهة نظر (لورنس) و (جرترود) ولذلك قرر (ولسن) ترك العراق ،

ولو أنه لم يغادره إلا فى أكتوبر ١٩٢٠ عندما وصل (سير برسى كوكس) الذى أعفى من مهام منصبه فى طهران .

وإذ انتصرت وجهة نظر (جرترود) فقد شمرت عن ساعد الجد من أجل تيسير سبيل تحقيقها ، ولذلك قامت ـ يعاونها (سان جون فيلبى) الذى حضر إلى بغداد مع (سير برسى كوكس) ـــ بعمل قائمة بأسماء أعيان البلاد الذين كانت (جرترود) ضرورة التقاء (كوكس) بهم ، وقائمة أخرى بمن يتعين عليه أن يقيم معهم صداقات شخصية وأخذت على عاتقها توجيــه الدعوات لهؤلاء ، وكانت النتائج ـ كما تقول (جرترود) ـ مرضية .

وفى كل خطوة يخطوها (كوكس) فى تنفيذ المخطط الجديد للحكومة البريطانية من أجل السيطرة على العراق كان يسترشد بآراء (جرترود) فقد صارت سكرتيرته الشرقية منذ ١٨ أكتوبر ١٩٢٠ ، ويتضــح ذلك عندما واجهته مشــكلة من يتولى رئاسة الحــكومة الانتقالية التى كانت ستدير البلاد فى فترة الانتقال ، ورغم أن (طالب باشا النقيب) زعيم البصرة كان أبرز شخصية فى العراق فى ذلك الوقت ، كما كانت (جرترود) معجبة به لعدم اشتراكه فى الاضطرابات ، إلا أنه كان معروفاً بقوة الشــكيمة ، ولم يكن من السهل إخضاعه لإرادة البريطانيين ، ولذلك اقترحت (جرترود) على (سير برسى كوكس) عرض منصب رئيس الحــكومة العراقية المؤقتة على السيد عبد الرحمن الـكيلانى نقيب بغداد ، رغم أنه كان معروفاً بعزوفه عن التورط فى الشئون العامة حفاظاً على سمعته الدينية (١٩) ، هذا إلى جانب شيخوخته واعتلال صحته ، وقد وافق نقيب بغداد على تولى المنصب ، ولمــا لم يكن من السهل تخطى (طالب النقيب) وإغفاله تماماً فقـــد استطاعت (جرترود) و (فيلبى) إقناعه بتولى منصب وزير الداخلية فى هذه الحــكومة على أساس أنه سيكون الرجل الثانى ، وأنه إذا مرض الرئيس أو توفى فإن (طالب باشا) هو الذى سيحل محله (٢٠) .

ومما تجدر ملاحظته أنه عندما عرض منصب وزير الدفاع فى هذه الحكومة المؤقتة على جعفر العسكرى ، أسرع إلى (جرترود) يسألها النصح فيما إذا كان اشتراكه فى الحكومة المؤقتة التى تعتبر « خدعة بريطانية » سوف يقضى على سمعته الوطنية ، فأبلغته (جرترود) أن ثقة أولئك الذين حاربوا فى سورية قد تزعزعت بما اعتبروه تخلى بريطانيا عن (فيصل)(٢١) ولذلك فهى تعتقد أن العراق يجب أن يختار أميراً من الأسرة الهاشمية وأن الحكومة البريطانية لن تقف فى وجه هذا الاختيار ، وظلت (جرترود) تلح من أجل اختيار أحد أبناء الشريف حسين أميراً دائماً على العراق خلفاً للحكومة الانتقالية ، وقد اقتنعت الحكومة البريطانية بأن أفضل من يتولى عرش العراق فى ظل السيطرة البريطانية هو (الأمير فيصل) لمقامه الدينى ودوره ودور والده فى الثورة على الترك ومعاونة بريطانيا ، وصلته بكثير من العراقيين ممن عملوا معه فى سورية ، ورغبة بريطانيا فى إزالة ما علق بمشاعرهم من استياء ومرارة لتخليها عنه لفرنسا ، واعتبر المسئولون البريطانيون أن فشله فى الاحتفاظ بالعرش السورى سيجعله أكثر إدراكاً لواقع الحال وأكثر روية فى معالجة الأمور .

ومن ناحية أخرى أخذت (جرترود) توجه بعض الصحف المحلية لتحقيق الأهداف التى كانت تسعى إليها ، فقد نظمت مثلا بعض الاجتماعات مع محرر صحيفة (العراق) - التى كانت فى نظرها معتدلة - بحيث كان يلتقى بها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً يستقى منها الأخبار ويتزود بالأفكار .

وأخيراً قرر (ونستون تشرشل) وزير المستعمرات البريطانى عقد مؤتمر فى القاهرة ، يحضره السياسيون المشتغلون بشئون الشرق العربى مثل (هربرت صمويل) المندوب السامى فى فلسطين و(سير برسى كوكس) المندوب السامى فى العراق علاوة

على لورنس وغيره من المستشارين ، وكانت (جرترود) تنـوى أن تشغل نفسها ـ أثناء غياب (كوكس) في القاهرة ـ بالعمل على تشكيل الرأى العام فى العراق وتوجيهه الوجهة التى تريدها ، ومن ذلك اجتماعها (بجعفر العسكرى) وطلبت منه إعداد الرأى العام لاحتمال تولية أحـد أبناء ملك الحجاز على عرش العراق ، وفى حديث مع (نورى السعيد) أشارت (جرترود) إلى أهمية تولى حاكم عربى على العراق ، وعندما تساءل عن كيفية التغلب على الصعوبات التى قـد تصادف (الأمير فيصل) أجابت بان الوسيلة الوحيدة هى عدم التردد بل السير قدماً فى هذا السبيل. إلا أن (جرترود) أعلنت أنه ليس من الممكن تقرير شيء قبـل اجتماع القاهرة المرتقب ، ولـكنها أوصت (نورى السعيد) بان يبذل غاية جهده من أجل وقف أى نشاط سياسى يقوم به حزب (العربية الفتاة) ، وتهدئة العناصر الوافدة إلى العراق من سورية ، أثناء غيابها مع (سـير برسى كوكس) فى القاهرة ، بعد أن صمم (كوكس) على اصطحابها معه إلى القاهرة .

وقد كانت وجهة نظر كل من (كوكس) و (جرترود) تتفق مع وجهة نظر (تشرشل) ، إذ طالب (كوكس) بإسقاط الانتداب على العراق الذى كان قد تقرر فى مؤتمر (سان ريمو) والعمل على إبرام معاهدة مع الدولة العربية بعد إقامتها واعتبرت (جرترود) أنها ستـكون خطوة رائعة « إذا جاءتنا الشجاعة الـكافية لاتخاذها » ، واعتبرت فـكرة إحلال معاهدة محل الانتداب ـ أى مزاولة سلطات ومهام الانتداب من خلال معاهدة ـ ضربة عبقرية Stroke of Genius لأنهـا توفق بين أمانى الوطنيين فى الاستقلال وبين مصالح بريطانيا لأن كلمة انتداب تعنى الخضـوع وهو أمر لم يعد يحتمله العراقيون ، أما معاهدة (بين الطرفين الساميين المتعاقدين) فيبدو فيهما كأن طرفاً قد وافق بحرية على بعض القيود على سيادته ، وبذلك يمكن أن تجد القبول دون أن توصم بالاستعمار .

وفى مذكرة (سرية للغاية) بعثت بها جرترود إلى حكومتها بتاريخ ٧ فبراير (شباط) ١٩٢١ أشارت إلى أن مؤتمراً على وشك الانعقاد فى لندن وباريس لإعادة النظر فى معاهدة سيفر وبأن ثمة اتجاهات فى الحكومة البريطانية لتقديم عرش العراق إلى أمير تركى ، من أجل تهدئة الوطنيين الترك ، وقد اعترضت جرترود على هذا الاتجاه ، على أساس أنه سيكون من الصعب إقامة انتداب بريطانى على العراق تحت حكم أمير تركى ، وفى الوقت نفسه سيكون من الصعب على تركيا المرهقة تولى الانتداب على العراق ، وأضافت جرترود أن الوطنيين فى العراق لا يريدون الترك ولكن نظراً لسخطهم على الوضع القائم فى العراق ، فإنهم يستخدمون شبح الترك لإخراج الإنجليز ثم يقومون بإخراج الترك ، وأشارت جرترود إلى أن المجموعة التى تفكر هذا التفكير ولو انها صغيرة العدد إلا أنها قوية الصوت ولسان حالها صحيفة الاستقلال (٢٢) .

ولذلك فقد كان من بين القرارات التى اتخذها مؤتمر القاهرة فى مارس ١٩٢١ ترشيح الأمير فيصل لعرش العراق المستقل الذى يرتبط ببريطانيا بمعاهدة ، ولو أن الحكومة البريطانية أرادت أن تكسب تولية فيصل صفة شرعية بتقرير إجراء استفتاء حتى تبدو توليته وقد نالت موافقة أغلبية الشعب العراقى .

* * *

إلا أن الطريق أمام (فيصل) لم يكن سهلا ممهداً . فقد كان غريبا عن البلاد لا يثق فيه الشيعة لسنيته ، بل أن عدداً كبيراً من السنيين لم يكونوا راضين عن علاقة أبيه بالإنجليز وثورته على خليفة المسلمين . هذا إلى جانب منافسة عدد غير قليل من المرشحين ، كان أخطرهم (طالب باشا النقيب) الذى كان يعتبر نفسه أحق من (فيصل) بعرش العراق « من ذا أحق منى ببلادى ؟ ألا يجوز أن يحكم العراق عراقى ؟ » وقد أحس (طالب) بأن بريطانيا ــ رغم تذرعها بأنها لن تولى فيصلا على العرش إلا

استنادا إلى موافقة الشعب - تتخذ كل الوسائل من أجل فرض فيصل ولذلك أخذ (طالب) يتصدى لهذه المحاولة ، فعارض — بصفته وزيراً للداخلية فى الحكومة المؤقتة — فى إصدار صحيفة تتولى الدعاية لفيصل مما حدا (بالسير برسى كوكس) إلى أن يطلب من (جرترود) بدء العمل فى هـذه الصحيفة دون موافقة (طالب باشا) كما تولى (سير برسى كوكس) إرسال البرقيات يدعو فيها (الملك حسين) لإرسال ابنه ولم ترسل الدعوة بالوسائل العادية حتى لا يوقفها (طالب باشا) .

وقد غضب (طالب باشا) وهو يرى هذا التدخل السافر لفرض (فيصل) وأظهر سخطه فى مأدبة كان قد أقامها لمستر (لاندون) Percival Landon مراسل (الديلى تلغراف) وألقى (طالب) فى المأدبة خطاباً أعلن فيه أن هناك بعض الموظفين المحيطين بالمندوب السامى متحيزون ويمارسون ضغطا وتدخلا فى الانتخابات (وكانت جرترود على رأس من يقصدهم (طالب باشا) وهدد (طـالب) بإثارة الأهلين والشيوخ وأنه سيلجأ إلى الإسلام وإلى الهند ومصر والاستانة وباريس ، وصارت (جرترود) ترى فى حديث (طالب) دعوة إلى الثوره لا تختلف كثيراً عن الدعوة إلى الجهاد(٢٣) .

وقد ترتب على ذلك أن دبر أمر اعتقاله ونقل إلى فاو ومنها إلى سيلان ، ثم رحل إلى أوروبا ولم يعد إلى العراق إلا عام ١٩٢٥ . وقد اغتبطت (جوترود) لهـذا الإجراء وأحست بأن عبئاً ثقيلا قد انزاح وأن العقبه الكبرى قد زالت من طريق فيصل ، خصوصاً وقد أعفى (سان جون فيلبي) مستشار الداخلية ونصير (طالب باشا) من منصبه ، كما استطاعت الحكومة البريطانية أن تثنى بقية المرشحين — وعلى رأسهم نقيب بغداد — عن منافسة (فيصل) .

وعند ما وصـل (فيصل) إلى العراق ، وعلى الرغم من تأييد الحكومة المؤقتة

ومساندة البريطانيين ، فقد كان استقباله فاتراً ، وكان معظم الناس منصرفين عنه حتى أنه فى اليوم التالى لوصوله إلى بغداد مرت (جرترود) بالسراى التى كان ينزل بها لتترك له بطاقتها لكنه استدعاها وجلس إليها يبثها مخاوفه ، فطمأنته وأكدت له أن (سيربرسى كوكس) معه قلبا وقالبا .

ومما تجدر ملاحظته أن الكماليين فى تركيا بمجرد أن سمعوا بأن فى نية بريطانيا تنصيب (فيصل) على عرش العراق بدءوا فى بث دعاية قوية تأييداً الشيخ أحمد الإدريسى السنوسى كمنافس لفيصل على عرش العراق ، كما أن الحكومة الفرنسية — إلى جانب تعليماتها إلى قنصلها فى بغداد بألا يقيم اعتباراً لفيصل — رصدت مبلغاً من المال لمساعدة السنوسى فى الدعاية ضد فيصل وبريطانيا على السواء . وأخذ السيد أحمد السنوسى يرسل العديد من الخطابات يحض القبائل والأفراد على الثورة ضد الإنجليز وفيصل باسم الإسلام ، حتى لقد شعر فيصل باليأس وصار يفكر فى مغادرة البلاد إلى إنجلترا لولا أن (جرترود) ومعها (جعفر العسكرى) و (كورنواليس) مستشار فيصل أقنعوه بالثبات وعدم ترك البلاد حتى لا يقال إنه اختلف مع (سير برسى كوكس)(٢٤) .

وأخيراً نجح (فيصل) فى الاستفتاء بفضل موازرة السلطات البريطانية التى لجأت إلى كثير من الوسائل للتحايل من أجل توليته وتم تتويجه ملكا على العراق فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢١

وحتى بعد أن توج فيصل ظل القلق يراوده عن مستقبله ، حتى لقد كتبت (جرترود) فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢١ أنها عند ما طلبت من (فيصل) إحضار زوجته وأولاده إلى العراق عبر لها عن عدم اطمئنانه ، مما دعا (جرترود) إلى أن توحى إليه بعقد اجتماعات مع شخصيات معينة لتدعيم مركزه وتعهدت هى بأن تقدم له قائمة بأسماء الشخصيات التى يتعين عليه توثيق صلاته بهم .

وهكذا كان فيصل مدينا بالفضل (لجرترود) حتى أنها عندما اطمأنت إلى توليته وزوال العقبات التى كانت فى طريقه فكرت فى السفر إلى (وطنها) بريطانيا لقضاء الصيف ، وعندما أبلغت فيصلا بذلك طلب منها ألا تتكلم عن (وطنها) «فوطنك هنا ، ولكن يمكنك أن تقولى انك ذاهبة لرؤية والدك» .

رأى جرترود فى سياسة بلادها إزاء الصهيونية :

وإنصافاً لهذه المرأة لانستطيع أن نختتم هذه الدراسة دون أن نشير إلى موقف جرترود من السياسة التى اتبعها بعض ساسة بريطانيا إزاء الصهيونية ، تلك السياسة التى تظهر بوضوح فى إصدار تصريح بلفور فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧ . ويكفى فى هذا المقام أن نستشهد برسالة جرترود إلى زوجة أبيها فى ٢٥ يناير (كانون ثان) ١٩١٨ والتى ذكرت أنها «تكره تصريح بلفور الصهيونى بخصوص سوريا ، وفى اعتقادى أنه لا يمكن تنفيذه ، فان البلاد (فلسطين) غير ملائمة بالمرة للأهداف التى يتطلع اليهود إلى تحقيقها ، فهى بلاد فقيرة لا تصلح لتطور كبير ، وثلثا سكانها من العرب المسلمين الذين ينظرون إلى اليهود نظرة ملؤها الكراهية والحقد ، وفى اعتقادى أنه مشروع (الوطن القومى اليهودى) مصطنع (غير طبيعى) لا صلة له بالحقائق ، وأتمنى له الفشل الذى يستحقه والذى سوف يتحقق»(٢٥) .

خاتمة المطاف :

وبعد أن أدت (جرترود) دورها بنجاح وانتهت مهمتها بدأ نجمها فى الأفول وخاصة بعد أن تولى (سير هنرى دوبز Dobbs) منصب المندوب السامى فى العراق ، ولم تكن (جرترود) على وفاق معه ، فعينت بأمر الملك فيصل مديرة للمتحف

الآثار إلى أن ماتت عام ١٩٢٦ ، وقد كتب لورنس إلى والدها عام ١٩٢٧ بأنه : « على يقين من أنها ماتت سعيدة راضية ، لأنها أنجزت المهمة السياسية التى أنيطت بها على أحسن وجه وهى مهمة من أخطر المهام التى وكلت إلى امرأة ، لقد انتهى دورها التاريخى ، كما انتهى دورى من قبل . »

وليس أول على تقدير مواطنيها لها والخدمات التى أدتها لبلادها من تلك العبارة التى اختتم بها شين ليزلى Shane Leslie مقدمته للجزء الثانى من كتاب اليزابث بيرجوين والتى قال فيها أنه لو أرادت بريطانيا أن تخلد النساء اللائى عشن ومتن فى سبيل الإمبراطورية أثناء الحرب العالمية الأولى ببناء مقبرة فى كنيسة وستمنستر فانه لا يمكن اختيار جثمان أشرف من جثمان جرترود بل لتمثيل هؤلاء السيدات .

الهـــوامش

(1) Burgoyne Elizabeth: Gertrude Bell from her Personal Parers (1914—1926) pp.14—15.
(2) Foster: The Making of Modern Iraq, pp. 32—5.
(3) إيرلاند: العراق ، دراسة في تطوره السياسي . ترجمة جعفر خياط (١٩٤٩) ص ٤ — ٥ .
(4) Foster: ouv. Cit pp. 37—8.
(5) Wilson, Loyalties, Mosopotamia Vol 1, pp. 6—9
(6) Idid. pp.10—11: Appendix 1, p. 311.
(7) Young: The Independent Arab (1933) p.273.
(8) Burgoyne: Ouv. Cit. p.82.
(9) Graves: The Life of Sir PercyCox, p.206.
(10) Burgoyne: Ouv. Cit, pp.33—43.
(11) Garnett: Letters of T.E. Lawrence pp.202—3.
(12) Burgoyne: Ouv. Cit.pp. 38—43.
(13) Kurds, Turks and Arabs. مؤلف كتاب
(13A) Burgoyne: Ouv. Cit. p 42.
(14) Wilson: Ouv. Cit. Vol. I, p. 238.
الحسني: تاريخ العراق السياسي الحديث ج١ ص ص٨٦ — ٨٨ .
(15) ايرلاند — خياط: المرجع السابق ذكره ص ص ٩٩ — ١٠٠
(16) Wingate Papers—School of Orienral—studies—University of Durham.

(17) Burgoyne: Ouv. Cit. pp. 105—9.
(18) Wingate Papers, Dnrham.
(19) Burgoyne: Ouv. Cit. p.174.
(20) Philby: Arabian Days p. 193.
(21) Burgoyne: Ouv. Cit. p. 193.
(22) Ibid pp. 204—5.
(23) » » 213—4.
(24) » » 243
(25) » » 75.